



تأثير القرآن الكريم على الأسس الفكرية للحضارة الإسلامية¹

آذر انجم شعاع - أبو ذر مظاهري*

يسعى هذا البحث إلى توضيح آلية تأثير القرآن الكريم ودراستها على الأسس الفكرية للحضارة الإسلامية، مستخدماً المنهج الوصفي- التحليلي والدراسات النظرية. وكذلك يُبين أن القرآن الكريم من خلال تأثيره على التعقل والفطرة الإنسانية، قد وفّر الموجبات المعرفية في النظام الفكري للعرب، وأوجد التغيير من أجل ظهور الثقافة الإسلامية، وأصبح اتباع كلام الوحي مُشكلاً لسباق الرشد الاقتصادي والديني والعلمي والفني للمجتمع الإسلامي، ولتحقق حياة الحضارة الإسلامية في الألفية الأولى من التقويم الهجري القمري.

المقدمة

إن نزول آيات الوحي النورانية على قلوب ساكني الحجاز الباردة والمُحَبَّطَة، قد أعطى دفئاً وحرارةً أدياً إلى منحهم الحياة. فكلام الوحي الذي نزل على النبي

1- سازوكار تاثیرگذاری قرآن کریم بر بنیان‌های فکری تمدن اسلامی. ترجمه محمد ترمس.

* آذر انجم شعاع: طالب دكتوراه في تاريخ وحضارة الأمم الإسلامية، جامعة آزاد الإسلامية - قم.

أبو ذر مظاهري: أستاذ مساعد، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم والبحث - إيران.

الأكرم ﷺ بعد بعثته، كشف عن طريق السعادة والكمال في الدنيا والآخرة، وأحدث تغييراً جذرياً في جميع أبعاد حياة المسلمين، بحيث يمكن القول بكل ثقة إنَّ تمام التقدُّم الحضاري والثقافي للمسلمين مرهونٌ بهذا الكتاب الشريف. يهدف هذا البحث من خلال المنهج الوصفي-التحليلي والنظري إلى الإجابة عن هذه الأسئلة: كيف أثر القرآن الكريم في الأسس الفكرية للحضارة الإسلامية؟ كيف أصبح القرآن الكريم صانعاً للثقافة؟ كيف حلت الثقافة الإسلامية محل الثقافة الجاهلية؟ ما السمات الفكرية الحضارية التي يحتويها القرآن؟ لماذا يدَّعي القرآن أنه موجدٌ لحضارة عالمية، وكيف ذلك؟

في ما يخص ضرورة البحث، لا يخفى أن أعظم رأس مال للمسلمين أثناء الفتوحات كان آيات القرآن الكريم، التي كان كل مسلم يرى في حفظها والعمل بها واجباً مقدساً. وقد كان لكلمات الوحي تأثيرٌ في أعماق نفوس الناس وأفكارهم، بلغ حدًّا أخرج عرب الجاهلية من حضيض الذل إلى قمة الشرف، ومكّنهم من أداء دور في تكوين حضارة رفيعة الشأن. ومن المؤكد أن دراسة آلية تأثير الآيات الإلهية في الأسس الفكرية والنظرية للأخلاق والعادات والآداب، وانعكاس ذلك على ثقافة المجتمع آنذاك، ومراجعتها، سيسهم في تحقيق الحضارة الإسلامية وإحيائها مجدداً. لقد حلل المفكرون والباحثون في مجال القرآن والحضارة، كل من زاوية محدّدة، جوانب مختلفة وقضايا متنوعة في هذا المجال، ودققوا في أمور مختلفة. غير أن هذا المقال سوف يركّز على الدور الأصيل لآيات القرآن في التفكير، باعتمادها الجذر والأساس للبحث عن الحق ومقارعة الباطل، مع تبين دورها في تغيير الفكر والثقافة وتطورهما، وإنشاء حضارة جديدة وتوحيدية.

يتناول هذا البحث، من خلال إلقاء نظرة سريعة على حال الفكر والثقافة والحضارة العربية قبل الإسلام، التطورات بعد ظهور الإسلام. وتتخذ الآيات القرآنية الدور الأساسي في إحياء قوة التفكير ونمو العقلانية وإيقاظ الفطرة، التي وجهت النظام الفكري للإنسان نحو نظام التوحيد ومحورية الله تعالى. كما تعمل هذه الآيات، من خلال مقاربتها لمبدأ عالم الوجود وحكمة خلق الإنسان على تنظيم نمط الحياة والثقافة، وفق مبادئ الدين الإلهي.

إنَّ حبَّ الحق وطلب العدل وإظهار المحبة والرحمة والعطف ومحورية الأخلاق وإرساء الأمن، كلّها من علامات فكر هذا المجتمع وخصائصه، وبهذه الطريقة

ترسم الآيات القرآنية وتخلق مضامين حضارةً عالميّة تنمو وتتطوّر في مختلف الأبعاد الدنيّة والاقتصاديّة والعلميّة والفنيّة.

دراسة مفاهيم البحث

وردت كلمة «القرآن» سبعين مرّة في المصحف الشريف، بحسب «المعجم المفهرس»¹، وباستثناء موضعين، فهو اسمٌ للإشارة إلى مجموعة معيّنة من كلام الله، بصيغة العام الاستغراقي أو العام المجموعي². كما ورد في بعض الآيات تحت اسم «كتاب»، والذي يشير إلى الترابط الشامل بين مضامينه، والتكامل في وحدتها من حيث الأهداف والأساليب، بحيث تبدو جميع أجزائه بمثابة كتاب واحد³. وورد معنى «الفكر» في «قاموس القرآن»: «فكر» (بفتح الأوّل وكسره)، بمعنى الفكر والتأمّل. وبعبارة أخرى، يدلّ الفكر على أعمال النظر والتدبّر من أجل الحصول على الحقائق والعبر⁴. أمّا «التّفكر»، فيشير إلى السير بين الحقّ والباطل⁵.

العلاقة بين الفكر والثقافة والحضارة

إنّ كلمتي: «تمدّن» في اللغة الفارسيّة، و«الحضارة» في اللغة العربيّة؛ (Civilization) في اللغة الإنكليزيّة، لهما مفهوم واحد. وقد عرّف معجم محمّد معين «الحضارة» بمعنى: «العيش في المدينة، والتخلّق بأخلاق أهل المدينة وعاداتهم، وتعاون أبناء مجتمع ما في الأمور الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة وغيرها»⁶.

1- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، تهران، اسماعيليان، 1364هـ مادة قرأ، ص 539-540.

2- سيف الله صرامى، جاىگاه قرآن در استنباط احكام، قم، دفتر تبليغات اسلامى، 1378هـ ص 22.

3- سيد محمد باقر حكيم، علوم قرآنى، ترجمه محمدعلى لسانى فشاركى، تهران، مؤسسه فرهنگى انتشاراتى تبيان، 1378هـ ص 14.

4- سيد على اكبر قرشى، قاموس قرآن، تهران، دار الكتب الاسلاميه، لا ت، ص 199.

5- رضا داوى اركانى، وضع كنوانى تفكر در ايران، تهران، سروش، 1391هـ ص 21.

6- محمد معين، فرهنگ فارسى، تهران، امير كبير، 1388هـ ج 1، ص 1139.

وعرّف معجم دهخدا «الحضارة» بأنها: «التخلُّق بأخلاق أهل المدن، والانتقال من العنف والهمجية والجهل إلى حالة الرِّقَّة والألفة والمعرفة»¹.
وفقاً لما ذكر، فإن الحضارة لا تستقيم فقط بالسكن في المدينة، بل إن التخلُّق بأخلاق أهل المدينة وآدابهم، والتخلّي عن التوحّش والجاهليّة، يُشكّلان أوّل خطوة للتّحضّر. ويشير دهخدا، أيضاً، إلى أنّ التّحضّر هو «تحويل الطبع البدويّ إلى مدنيّ، والجهل إلى العلم، والعنف إلى الرّأفة الإنسانيّة». وهذا التحوّل لا يمكن أن يتحقّق بشكل فوريّ من دون التّخطيط والاعتماد على أسس فكريّة؛ إذ إنّ ما يصنع الحضارة ويوصلها إلى الازدهار والكمال هو الثّقافة الحيويّة التي تسري في جسد المجتمع.

يرى الشهيد مطهري، أنّ «الثّقافة» تُمثّل روح المجتمع، فهي التي تمنح الإنسان وعياً بالعالم ومعرفة به، وتُعرّف له معانيه وأبعاده². أمّا «الحضارة»، فينظر إليها بوصفها سلسلة من العلوم والتّقنيّات الفعّالة والمفيدة لتحسين هذه الحياة، بالإضافة إلى سلسلة من العادات والطّقوس الضّروريّة لحياة اجتماعيّة أفضل³.
وبالنسبة إلى «الثّقافة»، يُعرّفها دهخدا بأنها التّعليم والتّربية والعلم والمعرفة والأدب⁴. وبناءً عليه، فإنّ الحضارة تقوم على الثّقافة، تماماً كما تقوم على التّفكير؛ إذ تشمل الحضارة المدنيّة والتّقديّم والتنمية والنّموّ والإبداع والمأسسة، ولا يمكن تصوّر ذلك من دون الثّقافة واستنادها إلى أسس فكريّة قويّة ومثينة. ومع ظهور الإسلام، ونزول القرآن، وبعثة النّبّي الأكرم عليه السلام، شهد المجتمع العربيّ الجاهليّ أوّلاً تحوّلاً وتنميّةً في مختلف جوانب حياته، ومن ثمّ ادّعى إنشاء حضارة جديدة.

1- على أكبر دهخدا، لغتنامه دهخدا، تهران، دانشگاه تهران، 1373 هـ ج 4، ص 6109.
سعيد شرتوني، اقرب الموارد في فصح العربيّة والشوارد، قم، كتابخانه آيت الله مرعشي نجفي، 1403 هـ ج 2، ص 1294.

2- محمدعلي زكريايي، فرهنگ مطهر، مفاهيم، اصطلاحات وتعابير علوم انساني-ديني از ديدگاه استاد شهيد مرتضى مطهري، تهران، جامعه وفرهنگ، 1389 هـ ص 406.

3- المرجع نفسه، ص 202.

4- على أكبر دهخدا، لغتنامه دهخدا، ج 10، ص 15109.

الثقافة والحضارة العربيّة قبل ظهور الإسلام

قبل قرونٍ من ظهور الإسلام، كان لأرض مكة مكانة مقدّسة ومتميّزة في شبه الجزيرة العربيّة. أمّا الكعبة، التي كانت بيت التّوحيد ومكان عبادة الحجّاج منذ زمن النّبي إبراهيم عليه السلام، فقد أصبحت مكاناً للأصنام بسبب الانحرافات الدّينيّة والنّزوع نحو عبادتها. وكانت القبائل العربيّة تفد إليها من كلّ حدب وصوب لأداء فريضة الحجّ، ما حقّق أهميّة متزايدة لمكة.

وفي أنحاء متفرّقة من الجزيرة العربيّة، كان الناس يعبدون أصناماً متعدّدة على هيئة بيوتٍ وأشجارٍ وحجارة، ولذلك كانوا يعدّون بعض الأماكن مقدّسة¹. وقد عُرفت مجتمعات، مثل البتراء وتُدمر بعبادة الشّمس، إلى جانب عبادة «ودّ» إله القمر. كما جعلوا «العزى» و«اللّات» و«مناة» بناتٍ لله تعالى. وكانت «اللّات» في الطائف عبارة عن حجر مرّبع قائم في موضع مستو، له حرّم خاص لا يُسمح فيه بقطع الأشجار والصيد وسفك الدّماء. أمّا «مناة»، فعُدّت إلهة القضاء والقدر. وكان «بعل» يُجسّد مظهر روح الينابيع والمياه الجوفيّة ومياه الآبار. و«عزوة» و«ذو الشّرى» في البتراء كانا عبارة عن أكوام من الحجارة غير المنحوتة، تُقدّم من أجلهما القرابين - وحتّى القرابين البشريّة أحياناً².

كانت شبه الجزيرة العربيّة مجتمعاً راکداً وجامداً، بعيداً عن أيّ نوع من التّكامل الفكريّ والتّقدّم البشريّ، يتزايد فيه الانحطاط يوماً بعد يوم. وكان أتباع الأجداد يُشكّل الأساس لدينهم. فالنّظرة الحسيّة، وغياب الفكر العقلانيّ، والتّقليد، واللّحمة القبليّة، وغياب التبادلات الفكريّة، كلّها أدّت إلى ركودهم الفكريّ³. وكان النّظام القبليّ هو السائد بينهم؛ عاشت ثلاثمئة وستون قبيلة في شبه الجزيرة العربيّة مستقلّة وحرّة في أعمالها⁴. ولم يكن فيها أيّ سلطةٍ سياسيّةٍ

1- حسن إبراهيم حسن، تاريخ سياسى اسلام، ترجمه ابوالقاسم پاينده، تهران، بدرقه جاويدان، 1392هـ، ج 5، ص 63.

2- فيليب خوري حتّى، تاريخ عرب، ترجمه ابوالقاسم پاينده، تهران، علمى وفرهنگى، 1380هـ، ص 123-126.

3- رسول جعفریان، تاريخ سياسى اسلام تا سال چهلم هجرى، قم، مؤسسه در راه حق، 1366هـ، ص 33.

4- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج 5، ص 50.

واحدة تسيطر عليها¹.

كان الأفراد يعيشون في ظل حماية النظام القبلي؛ بحيث إذا تعرّض أحدهم للاعتداء، فمن المؤكد ستتعرّض القبيلة الأخرى للثأر والانتقام. ومثال على ذلك، نذكر الحرب الدامية التي نشبت بين قبيلتي «الأوس» و«الخزرج» في يثرب، والتي استمرت مئة وعشرين عامًا، ما أدّى إلى تخلفهم في مجالات الزراعة والتجارة، وأصبحوا أضعف من يهود يثرب من الناحية الاقتصادية. ومن أجل إحلال السلام والأمن، كانوا يمنعون القتال والنزاع فقط خلال الأشهر الحرم؛ إذ ينسون الأحقاد مؤقتًا، فيصبحون أصدقاء وأعداء في الوقت ذاته، أحرارًا في التعامل مع بعضهم بعضًا، وفي مأمن من عدوان بعضهم على بعض².

كان معظم العرب شعوبًا ساذجة، ولم يكن لديهم أي نصيب من مقومات الحضارة. وكان تعدد الزوجات منتشرًا في ما بينهم بلا قيد ولا شرط؛ إذ كانوا يتصارعون على امتلاك نساء الغرباء. وكانت المرأة بالنسبة إليهم مخلوقًا لا فائدة منه، حتى إنهم كانوا يدفنون البنات وهنّ على قيد الحياة³. كما كانت أصول العبودية شائعة بينهم؛ إذ كان من الممكن أن يقع أي شخص ذا مكانة عالية أسيرًا في الحرب، فيتحوّل بذلك إلى عبد من العبيد.

يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في وصف عرب الجاهلية: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ، وَفِي شَرِّ دَارٍ مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ حُشِنَ وَحَيَاتٍ صُمٌّ؛ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالْأَثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ»⁴.

مع ظهور الإسلام، وخلال هجرة المسلمين الأولى، قدّم جعفر بن أبي طالب للنجاشي، ملك الحبشة، وصفًا دقيقًا للوضع الاجتماعي والأخلاقي في المجتمع العربي الجاهلي قائلًا: «أيها الملك، إننا كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام،

1- رسول جعفریان، تاریخ سیاسی اسلام تا سال چهلم هجری، ص 33.

2- حسن إبراهيم حسن، تاریخ سیاسی اسلام، ص 62.

3- المرجع نفسه، ص 41.

4- نهج البلاغه، ترجمه محمد دشتی، اصفهان، فرهنگ مردم، 1380 هـ الخطبة 26، ج 2،

ص 73.

ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منّا الضعيف»¹.

وبالرّغم من كلّ ما ذُكر، كان عرب العصر الجاهليّ غيورين ومدافعين عن عرضهم وشرفهم حتّى الموت²، وهذا ما يظهر بوضوح في أشعارهم. ف«المروءة» تعني الشّهامه وماء الوجه والشّرف، وتتجلّى فيها معاني الشّجاعة والوفاء والكرم. وهذه الصّفات كلّها هي من صفات العرب في الجاهليّة³. كذلك كانت «الفصاحة»؛ أي القدرة على التّعبير بصراحة ودقّة من خلال النّثر والنّظم، بالإضافة إلى الرّماية وركوب الخيل، وهي صفاتٌ ثلاثٌ ضروريّة للرجل الكامل في العصر الجاهليّ. ومع ذلك، غابت عن القبائل العربيّة مظاهر التّعليم والتّعلّم؛ إذ كان قلة قليلة فقط يعرفون بعض الأمور، ولم يكن باستطاعتهم تعليمها للآخرين. ولما جاء الإسلام، لم يكن في قريش سوى سبعة عشر رجلاً يعرفون القراءة والكتابة. وبناءً عليه، برز الجانب الثّقافي بشكلٍ واضح في الشّعر، وكان تعلقهم البدويّ بالشّعر هو المؤشّر الوحيد على ثقافتهم.

كان تقويمهم، كما في التّقويم الإسلاميّ، يعتمد على الأشهر القمرية. وبناءً على متطلّبات بيئتهم المعيشية، اكتسبوا بعض العلوم، منها معرفة الأحوال والتّغيّرات الجويّة، وعلم الآثار والأنساب⁴، والطّب، والسّحر⁵، بالإضافة إلى معلومات متناثرة ناتجة عن المشاهدة والاستماع. وقد سيطر على عقول الحجازيّين طبعٌ جافٌ، يتّسم بالغرسة والعنف؛ إذ كان طبع أهالي مكة والمدينة والطّائف قريباً من طبع البدو. وقبل الإسلام، لم يكن بينهم حكماء أو فلاسفة أو مفكّرون⁶. هذه، باختصار، صورة عرب الجاهليّة الذين عاشوا في أرض التّوحيد (مكة) والحجاز، قبل البعثة النبويّة ونزول القرآن.

1- رسول جعفریان، تاریخ سیاسی اسلام تا سال چهلم هجری، ص 44-43.

2- المرجع نفسه، ص 37 و41.

3- فيليب خوري حتّى، تاریخ عرب، ص 122.

4- حسن إبراهيم حسن، تاریخ سیاسی اسلام، ص 61.

5- فيليب خوري حتّى، المرجع السابق، ص 114.

6- ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، 1378 هـ ج 7، ص 51.

ظهور الإسلام ونزول القرآن

منذ البداية، كان القرآن أحد العناصر القيّمة والمؤثّرة في نفوس المسلمين. ولم يكن النَّاس العاديّون فحسب مَنْ يستمعون سرّاً إلى القرآن الكريم، بل كان المشركون أيضاً يستمعون سرّاً إلى تلاوة القرآن ليلاً، حتّى أُعجبوا وفتنوا به. والسبب في تسميتهم للنبيّ بـ«السّاحر» والقرآن بـ«السّحر» هو انبهارهم بكلام القرآن الأسر. وكان هذا الأمر في حدّ ذاته علامة على عظيم تأثير القرآن في الجميع، وقدرته على إحداث التّغيير والتّحوّل في القلوب¹.

ويحسب تصريح القرآن، فإنّ من آثار هذا الإعجاز هو اهتزاز القلب وانهمار الدّموع من العين عند سماع الآيات، وهذا تکرّر هذا المشهد مراراً لدى المسلمين² وغير المسلمين والمعارضين للقرآن³. ويرجع هذا التأثير إلى جاذبيّة القرآن في قدرته على إقامة علاقة مباشرة مع روح الإنسان، ما يُحدّث فيه مثل هذه العاصفة⁴. وكما يقول بعض المستشرقين الإنكليزيين: إنّ القرآن يجذب قارئه الأوروبي كما يفعل المغناطيس بالإبرة، ولا يتركه إلا إذا انفصل عنه بالقوّة⁵.

استحوذ القرآن الكريم، كلام الله عزّ وجلّ ومحتوى الرّسالة السّماويّة، على عقول المخاطبين وقلوبهم منذ نزول أول آية. كان لنفوذ الفريد فيهم أنّه جعلهم أناساً متّحضّرين. وقد أنس أتباعه به لدرجة أنّهم لم يتردّدوا في التّضحية بحياتهم وممتلكاتهم من أجل الحفاظ على أحكامه ووصاياه والعمل بها، بل كانوا يتنافسون في ذلك.

وثمة الكثير من العناصر الأخرى التي عزّزت أنس النَّاس بساحة القرآن المقدّسة وتعلّقهم بها، مثل: كفيّة النّزول، اللّغة، المضمون، المبادئ، والأهداف؛ وكلّها

1- رسول جعفریان، تاریخ سیاسی اسلام تا سال چهلم هجری، ص 22-24.

2- ﴿اللّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مّتَابِنًا يُقْرَأُ مِنْهُ جُلُودٌ أَلْدِينِ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (سورة الزمر، الآية 23).

3- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشّٰهِدِينَ﴾ (سورة المائدة، الآية 83).

4- علي نصيري، راز جاودانگي قرآن، قم، اسراء، 1390 هـ ص 77.

5- المرجع نفسه، ص 81 و82.

تُجسّد حقيقة واحدة مفادها أنّ كلّ شخص، مهما كان مستواه من الفهم والإدراك والوعي، وأياً كانت عقيدته ومسلكه، يُقَرَّبُ بأن لغة القرآن ليست غامضة ولا مبهمّة، بل هي مفهومة وواضحة؛ لأنّ تعاليمه تتفق مع عنصرين أساسيين من العناصر الدّاتيّة للإنسان: العقل والفطرة.

العناصر المؤثّرة في القرآن

1. التّعقل:

العقل هو أهمّ أداة للوصول إلى اليقين بالمبادئ الدّينيّة. لقد ذكر القرآن مراراً وتكراراً أمر «التّفكير»، و«التّدبّر»، و«التّدكّر»، و«البرهان»، و«النّظر»، ومرادفاتها، مؤكّداً بذلك دعوته النّاس إلى التّعقل. إنّ أحد عناصر المجتمع الإسلاميّ المتحضّر هو رشد العقلانيّة لدى النّاس؛ فرشد العقلانيّة ونموّها هما أساس نموّ الإيمان والمعنويّات. وهكذا، غداً العقل مصباح الدّين والشّريعة ومنبع معرفة الإنسان من الدّين.

وفي هذا السّياق، يقول آية الله جواديّ الآملي: «للعقل دورٌ في إثبات الأركان الأوّليّة للدّين؛ مثل وجود المبدأ، ووحدة المبدأ، الأسماء الحُسنَى للمبدأ، الوحدة العينيّة للأسماء والصفات مع الذات الإلهيّة، وضرورة إرسال النّبِيّ، وإنزال الكتاب. وأمثال ذلك، مبادئ وأسس بيّنة ومُبيّنة»¹.

و«العقل» يعني تلك القوّة الإدراكيّة الخالصة المُصانعة من الوهم والخيال والقياس والظنّ، وفوق كلّ شيء، التي نفهم التناقض جيّداً، وفي ضوء ذلك تُدرك القضايا البديهيّة تماماً². وفي الكثير من السُّور المكيّة، يلجأ القرآن الكريم إلى الاستدلال وإقامة البرهان³، ويحثّ النّاس على تعلّم القرآن وتعليمه والتّدبّر في

1- عبد الله جواديّ آملي، منزلت عقل در هنسه معرفت ديني، تحقيق وتنظيم احمد واعظي، قم، اسراء، 1386 هـ ج 7، ص 52 و53.

2- المرجع نفسه، ج 7، ص 31.

3- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ أَرَّزَ أَنْتَخِذْ أُنَا مَاءَ إِلَهَةٍ إِنِّي أَرَأَيْتَ إِذْ أَرَّزْتُكَ فِي صَلَاتِكَ مُبِينٍ ﴿٣١﴾ وَكَذَلِكَ نُرِيّ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهِي بِلَيْلٍ وَأَنَا نَهْضٌ ﴿٣٤﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا رَبِّي هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهِي بِلَيْلٍ وَأَنَا نَهْضٌ ﴿٣٥﴾ وَإِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْأَرْضِ حَيْفًا ←

معانيه والتفكير في أهدافه ومقاصده¹. ففي غياب التفكير كل ما هو موجودٌ ضالاً، وتصبح جميع الشؤون عرضةً للفوضى والاضطراب². وهكذا، يقوم القرآن الكريم بإزاحة حُجب الغفلة عن أذهان الناس وأفكارهم، ويُحرّره سلاح العقل والمنطق من أوهام العبودية وسلاسل تقليد الوجهاء والأسلاف³، ومن التعصّب القبلي والنظرة الحسية. ومن خلال تحرير الفكر والالتفات إلى طبيعة الإنسان النقية، استطاع الناس المفكرون والعقلانيون التحرّر من قيود عبادة الأصنام والشهوات، ولم يروا حينئذ شيئاً سوى الله.

2. النزعة الفطرية:

يشير العلامة الطباطبائي إلى أن «الفطرة» تعني الهداية التكوينية والقوة التي غرسها الله في الوجود الإنساني، والتي توفر له الأساس لتحقيق السعادة⁴. ومن منظور القرآن، للقيم الإنسانية جذورٌ في طبع الإنسان؛ إذ لا يُعدّ الشعور بمعرفة الله من المشاعر الأصلية والمتجذرة لدى الإنسان فحسب، بل إنّ المشاعر الدينية والمذهبية فطرية أيضاً. فالقرآن، من خلال استخدامه المبادئ الأساسية للتفكير الإنساني، والتي تُعدّ الطريق الوحيد لمنح العلم والفكر والفلسفة البشرية قيمةً، يدعو الناس إلى الإيمان والعمل الصالح.

← وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٦﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَتَى الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٩﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿سورة الأنعام، الآيات 74-83﴾.

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (سورة المؤمنون، الآية 91).

1- ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (سورة محمد، الآية 24).

2- رضا داوری ارکانی، وضع کنونی تفکر در ایران، ص 15.

3- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة، الآية 170). ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (سورة الإسراء، الآية 36).

4- محمد حسين طباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، قم، جامعة مدرسين، لا ت، ج 16، ص 177.

إن آيات القرآن الكريم، من خلال إيقاظ الفطرة الإدراكية والعاطفية للإنسان، تقوده نحو البحث عن الحقيقة، والفضائل الأخلاقية والجماليات، وفي النهاية التمحور حول الله والنظام التوحيدي¹. وكما أن الأدلة العقلانية والمنطقية هي التي تعطي الاتجاه للإنسان، ثمّة عوامل جذب في داخل روحه تحدّد الاتجاه حتى لا تعطل أهدافه الحيويّة². ولغة الفطرة هي لغة بسيطة، غير ملوثة، ومفهومة بشكل عام، وهي لغة تحفيزية تؤدي دوراً في مجال بناء الإنسان والأخلاق الحميدة، وهذه هي المكونات نفسها التي يحتاجها المجتمع المتحضّر.

المؤشّرات الحضارية للقرآن

1. الهداية:

يعدّ القرآن هداية البشر رحمةً من الله، وإرسال الرّسل نعمةً عظيمةً من منن الله تعالى على المؤمنين. ويرى القرآن أن الأنبياء هم هداة الأُمم ومؤسّسو الحضارة الإنسانية، فلم يكن للبشر أن يتخذوا طريق السّيطرة على العالم لولا أن الأنبياء أخرجوهم من أسر الطّبيعة، ومنحوهم حرّية العمل وفكّوا قيود الفكر والأيدي والأقدام³.

فالقرآن هو دستور المسلمين وكتاب سعادة العالم عبر التاريخ. فمن جهة، يُقدّم القرآن الله تعالى بوصفه الأحَد، الخالق، العالم، الحكيم، العادل، المُدبّر، المدير. ومن جهة أخرى، يُقدّم نفسه - أي القرآن - بوصفه المُبشّر، التّذير، والهادي إلى السّعادة والخلّاص والحياة الطّيبة.

1- ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الروم، الآية 30). ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (سورة الأعراف، الآية 172). ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (سورة الأحزاب، الآية 72). مرتضى مطهري، فطرت، تهران، انجمن اسلامي دانشجويان مدرسه عالي، 1361هـ ص 171-186.

2- ناصر مكارم شيرازي، برگزيده تفسير نمونه، تهران، دار الكتب الاسلاميه، 1386هـ ج 3، ص 543.

3- محمد مفتح، آيات أصول اعتقادي قرآن، تهران، نور، 1360هـ ص 31.

وقد دفع الفهم العميق لهذه الحقائق المسلمين إلى وضع كلام الوحي أمامهم في منعطفات الحياة وتقلباتها. ويحمل القرآن الكريم برنامجاً شاملاً يغطي جميع مجالات الحياة المتنوعة، التي تتضمن جميع الأمور الدقيقة الحاكمة على عالم الخلق. وللإنسان دورٌ محوريٌّ في هذا العالم، فجميع جوانب حياته، بما في ذلك علاقاته بمبدأ الخلق، ونفسه، والطبيعة والآخرين، هي محور نظر الله تعالى، والقرآن هو وسيلة هدايته طوال حياته.

2. بناء الثقافة:

«الثقافة» هي الجانب المعنوي، الذهني، والفكري وغير المرئي (البرمجي) للحضارة؛ فهي تمثل الأسس الفكرية التي تقوم عليها الثقافة على مستوى المجتمع، والتي بدورها تصنع الحضارة. و«الثقافة» هي، أيضاً، نظرة الإنسان إلى العالم والبشر، وهي حاضرة في جميع الأبعاد الاعتقادية والعادات والتقاليد والأخلاق والأدب والشعر والفن والموسيقى.

ويمكن تقديم آلية تأثير القرآن في الأبعاد المذكورة على النحو الآتي:

أ. إصلاح الأسس الفكرية والعقائدية:

في بُعد الثقافة، تُطرح المعتقدات، الأفكار، والرؤى الكونية. وينبغي ترسيخ أصول الدين والبنى الفكرية التحتية من خلال البحث والتفكير والاجتهاد. وعند تدبر الآيات، يتبين أن القرآن يستخدم أساليب مختلفة لإثبات التوحيد ونبوة الرسل، وقبول الكتب السماوية الأخرى، والعالم الآخر وأحداثه. فالدعوة إلى التعقل والتفكير والتدبر وإيقاظ الفطرة الإنسانية وإثبات فطرة الدين في عالم الخلق ومعرفة صفات الله، هي من أساليب القرآن العملية التي تستفيد من براهين متنوعة؛ مثل برهان الحركة¹، وبرهان النظم، وبرهان الصديقين²؛ لإحياء القلوب والعقول وتحريرها من الخضوع للآلهة الباطلة وذلّ عبادة الأصنام، واستبدالها بعبادة الله الواحد.

1- ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (سورة الأنعام، الآية 76).

2- ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة فصلت، الآية 53).
علي نصيري، راز جاودانگي قرآن، ص 119.

إن الصورة التي يُقدّمها القرآن للباري تعالى تملأ القلوب والعقول بالدهشة والعشق له، وتظهره جامعاً للصفات الحسنة ومُنزّها ومُبرّها من الشوائب. إن وصف جمال عالم الوجود، وعالم الملك والملكوت وأسراره غير المنكشفة، وذكر مراحل الخلق، وما شابه ذلك، يُوجّه الإنسان نحو الإيمان بوجود إله حكيم، عالم، قادر، حي لا يموت، رزاق، وغير ذلك.

لقد استخدم القرآن الكريم في إثبات المعاد براهين الإمكان؛ مثل القدرة الإلهية غير المحدودة، وضرورة وجود المعاد؛ مثل برهاني الحكمة والعدالة¹. كما أنه استند في توضيح إمكانية بعث الموتى وإثبات ذلك إلى أدلة حسية ونقلية؛ مثل إحياء الطيور الأربعة على يد النبي إبراهيم عليه السلام²، وإحياء أصحاب الكهف بعد مرور ثلاثمائة سنة³، وأمثلة من تجدد الحياة في الطبيعة (كالزبيح)؛ ليجعل مخاطبيه، بمختلف مستوياتهم المعرفية، مؤمنين بالمعاد.

ب. تفسير العادات والتقاليد:

«العادات والتقاليد» تُمثّل مجموعة من السلوكيات الثقافية، وقد حرّم عرب الجاهلية القيام ببعض الأعمال والتصرفات، وأوجبوا بعضها الآخر على أنفسهم، بناءً على الخرافات والأوهام وتقليد السلفاء. وتطرق كلام الوحي إلى بيان أحكام الشريعة في ما يتعلق بحقوق الإنسان وواجباته. ولا يخرج أيّ أدب أو عادة وتقليد عن الأحكام التكليفية الخمسة: الواجب والحرام والمستحب والمكروه والمباح. ويُعدّ القرآن الكريم مصدر أحكام الحياة، وأول وأهم وثيقة لاستنباط القواعد الشرعية. وقد بذل المسلمون قصارى جهدهم في فهمه وتطبيقه.

ويُشبه القرآن الكريم المحرّمات بالحدود الإلهية التي يجب على الإنسان الامتناع عن الاقتراب منها، وأن يمارس التقوى في مواجهتها. وقد تضمّنت سورة البقرة عددًا كبيرًا من الأحكام، مؤكدة أنّ ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ

1- علي نصيري، راز جاودانگي قرآن، ص 122.

2- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذَا أُلْقِيَ النَّاسُ فِي الْغَدْرِ أَغْرَقُوا أَمْ أَسْأَلُ مِنْ دُونِ الْغَدْرِ قُلْ أَنبِئْهُمْ بِأَمْرِهِمْ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ قُلْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة، الآية 260).

3- ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّنَا عَلَيْهِنَّ لِيُعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ أُمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَأَيْتُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا﴾ (سورة الكهف، الآية 21).

يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾.

في زمن حضور النبي الأكرم ﷺ، كان ﷺ يجيب بنفسه عن أسئلة المسلمين، ويشرح الأحكام الفقهية ويفسرها ويوضحها، ويبيّن كيفية العمل بها. وبعد وفاته، وعلى مدى ثلاثة قرون، ومع استمرار الاستفادة من حضور الأئمة الأطهار (عليهم السلام)، بذل أصحابهم - وبتوصية منهم (عليهم السلام) - جهوداً من أجل جمع الأحاديث مع سلسلة أسانيدها الموثوقة. وقد جُمعت هذه الآثار في مصنفات مختلفة، وأصبحت متاحة للباحثين عن الأحكام الشرعية تحت عناوين شتى، وشكّلت مصدراً لاستخراج الأحكام.

ج. محورية الأخلاق في القرآن:

تتمتع تربية الإنسان ونموه بمكانة مركزية في الحضارة الإسلامية، ويتمثل الهدف النهائي في تهيئة الأرضية لتحقيق هدف الخلق، والوصول إلى الكمال عن طريق العبودية لله. وتالياً، يتوفر السياق للوصول إلى درجة القرب الإلهي، وينبغي أن يتجلى هذا المبدأ في السياقات الفردية والاجتماعية. ويستلهم المجتمع الإسلامي أنماط حياته وأسلوبها من القرآن الكريم والسيرة النبوية المتوافقة مع التعاليم القرآنية.

فإذا دخل القرآن قلب كل إنسان، صنع منه إنساناً مختلفاً؛ لأنه ينظر إليه بصفته موجوداً ثنائياً الأبعاد، بعد أن مرّ بالمراحل الأولية للخلق، وتجاوز العالم الماديّ بنفخ الروح الإلهية فيه، ليصطبغ بالصبغة الإلهية والملكوّية². فروحانية الإنسان هي وجه تمايزه عن سائر المخلوقات؛ إذ هو المسافر إلى الله، ومقصده لقاء الله سبحانه.

وفي هذا السفر، يكون كلام الله تعالى هو الهادي والمبين للواجبات الأخلاقية، التي تقود الإنسان إلى الكمال الحقيقي والسعادة. وقد احتلت الأخلاق في المجتمع

1- سورة البقرة، الآية 229.

2- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿٣﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٤﴾ (سورة المؤمنون، الآيات 12-14)، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ (سورة السجدة، الآيات 7-9).

القرآني مكانةً رفيعةً؛ إذ يسعى الناس إلى اكتساب الفضائل الأخلاقية والوصول إلى منزلة التقوى؛ لأن ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾¹. وهذه الصفة المفهومية السامية تحمل آثاراً شخصية واجتماعية كثيرة. وفي دعوته الجميع إلى التخلق بـ«الخلق العظيم»، استخدم القرآن الكريم أساليب مختلفة لشرح المبادئ والأحكام الأخلاقية. وما بيان قصص الأنبياء والأقوام السابقين، وتقديم النماذج المثلى من الرجال والنساء للمخاطبين، واستخدام البرهان، وتفعيل الفطرة، والتأكيد على أهمية التزكية والتهديب، وطرح الجنة والنار الأخلاقيتين²، وما شابه ذلك، إلا نماذج من التطبيقات الأخلاقية للقرآن.

ويقارن كلام جعفر بن أبي طالب في بلاط الملك النجاشي، بشأن التغييرات الروحية والسلوكية للمسلمين، بعصر الجاهلية³، على أساس الرسالة التي بلغها إياهم رسول الله ﷺ. فالتغييرات التي حدثت في صفات المسلمين وسلوكهم وأفعالهم وصلت إلى حد جعلت رستم فرخزاد - قائد الجيش الفارسي في عهد آخر ملوك الدولة الساسانية- يشهد بعد مشاهدته التصرفات غير الأخلاقية في جيشه، قائلاً: «إني الآن على يقين من أن العرب سينتصرون علينا؛ لأن أخلاقهم وسلوكهم أفضل منا بكثير»⁴.

د. العلاقة مع الدنيا والنزعة الأخروية:

من خصائص دين الإسلام إيجاد نظم وعلاقة متوازنة بين الدنيا والآخرة، فهو يريد للإنسان أن ينظر إلى الدنيا والآخرة من دون إيجاد فجوة وانفصال بين الحياة الدنيوية والأخروية. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾⁵. ويتميز الإسلام عن غيره من الأديان والمدارس بأنه يُقدّر العمل والجهد وكسب الرزق الحلال في الدنيا، بل يعدّه شكلاً من أشكال العبادة.

في القرآن الكريم، يستمد كل شيء معناه من محوره حول الله تعالى؛ فالله

1- سورة الحجرات، الآية 13.

2- عبد الله جوادى آملی، مبادئ اخلاق در قرآن، قم، اسراء، 1377هـ ص 168.

3- جعفر سبحانی، فروغ ابدیت، قم، دفتر تبلیغات اسلامی، لا ت، ص 255.

4- مرتضی مطهری، خدماں متقابل اسلام وایران، تهران، صدرا، 1374هـ ج 21، ص 306.

5- سورة القصص، الآية 77.

وحده هو الذي يجب أن يُحمَد، وكلّ الأمور الأخرى إنّما هي مطلوبةٌ بالعرض، وما مطلوبيتها إلاّ لأنها تُوفّر وسائل قرب الإنسان من الله سبحانه. ويُشير محمّد أسد، المستشرق المسلم من أصل نمساويّ والمقيم في باكستان إلى «أنّ طريقة فهم العبادة في الإسلام وتشخيصها تختلفان عمّا هو موجودٌ في الأديان الأخرى؛ لأنّ العبادة في الإسلام لا تقتصر على أعمالٍ مثل الخشوع المحض، كالصلاة والصيام، بل تشمل جميع جوانب الحياة العمليّة للإنسان»¹.

وعلى هذا الأساس، ينخرط المسلمون في أداء التكاليف والمناسك بكلّ إخلاصٍ وجهدٍ طلباً لرضى الله تعالى، وتعدّ جميع نشاطاتهم اليوميّة عبادة.

هـ. العدالة الاجتماعيّة والأمن:

إنّ تحقيق العدالة الاجتماعيّة هو أحد أهداف بعثة الأنبياء (عليهم السلام). والمجتمع القرآنيّ الحضاريّ هو مجتمعٌ يتمحور حول العدالة، لا مجتمع متعدّد الأقطاب والطبقات. وقد تمثّلت معجزة دين الإسلام في قدرته على توحيد النّاس حول مبدأ الإيمان والتّقوى عبر إقامة العدل، وتأليف القلوب، والتّضامن، والانسجام الحقيقيّ بين أفراد المجتمعات المسلمة. فجلب لهم الأمن الحقيقيّ والثّقافة الحيّة، والتحرّر، والكرامة العظيمة.

لقد حدّر القرآن الكريم المسلمين من الاعتداء بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾²، مبيّناً أنّ من عواقب التّعديّ الحرمان من محبة الله ونعمه، وخراب الحضارات³، فضلاً عن العذاب الأخرويّ. وعندما يرى النّاس أنفسهم ملزمين بأداء الحقوق الإلهيّة، ويتخلّقون بالأخلاق، فإنّهم يزيلون كلّ عوامل التّهديد في إقامة العدل والأمن عن نسيج المجتمع، ويعيشون في ظلّ الأخوة.

وفي خطوة أعلى من العدالة، التي هي الحد الأدنى في المنظومة الحضاريّة القرآنيّة، جعل الله تعالى المحبة والإحسان والرّحمة أساساً للعلاقات الإنسانيّة. فالأمة الموحّدة، بغضّ النظر عن القوميّة والعرق واللّهجة والأقاليم الجغرافيّة المختلفة، لا

1- عبد الرحيم غنيمه، تاريخ دانشگاههای بزرگ اسلامی، ترجمه نور الله كسايبی، تهران، دانشگاه تهران، 1388هـ ج 4، ص 182.

2- سورة آل عمران، الآية 57.

3- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (سورة الأعراف، الآية 134).

تمارس الظلم حتى على الكفار والأعداء؛ بل تعاملهم بالعدل والقسط¹. وقد ورد أنه بعدما فتح المسلمون أراضي أخرى وحكموها، لم يتمتع المسيحيون الشرقيون بالتسامح في ظل الكنيسة كما لمسوه في ظل حكم الإسلام، وكانت هذه النقطة من العوامل الأساسية في خلق الرخاء والراحة اللتين تحتاجهما الحضارة والثقافة الإنسانية².

ويشير «غوستاف لوبون» (Gustave Le Bon) إلى أن القرآن الكريم كان العامل المحفز للفتوحات بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ، وأن الإسلام لم ينتشر بالقوة والسيف، بل بالتشجيع والتبليغ والعدالة التي حققها الفاتحون للمغلوبين³. كذلك، خطط القرآن لقوانين مالية وقانونية فريدة من نوعها، من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية والرفاهية العامة، ومنع تراكم الثروة لدى طبقة النخبة.

القرآن والحضارة العالمية

من منظور القرآن الكريم، الإنسان خليفة الله في الأرض، ولأجل رشد الإنسان وتساميه، فقد جعله مسخرًا وحاكمًا على الأرض ومخلوقاتها، وهو في ذاته مرشد له⁴. وقد استخدم المسلمون هذا المبدأ القرآني في الازدهار العلمي والثقافي، ومن

1- ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُجْرِمُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الممتحنة، الآية 8).

2- غلامحسين زرين كوب، كارنامه اسلام، تهران، امير كبير، 1379 هـ ص 24.

3- گوستاو لوبون، تمدن اسلام عرب، ترجمه محمدمتقى فخرداعى گيلانى، تهران، على اكبر علمى، 1363 هـ ص 146 و 147.

4- ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا لَظَنَّا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة البقرة، الآية 168). ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (سورة النساء، الآية 29). ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرًا وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة لقمان، الآية 20). ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيِّعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (سورة إبراهيم، الآية 31). ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (سورة النحل، الآية 6). ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة النحل، الآية 9). ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٥﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ←

أجل توسيع رقعة الإسلام والازدهار الاقتصادي لعباد الله، ولنشر الدين وإثبات رفعة دينهم وعظمتهم، ولحل مشكلات المجتمعات المتنوعة، توجهوا نحو الإنتاج العلمية والصناعية والفنية، ونظموا حضارة ديناميكية¹.

1. التنمية الاقتصادية:

من خلال تأكيد القرآن على حقيقة أنه بإرادة الحق قد مُدَّت مائدة النعم الإلهية في عالم الوجود على نحو ينفع الإنسان، ويؤسس لدورة حياته ونشاطه، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾²، فإنه يوصي أتباعه لزوم الاستفادة من هذه النعم الإلهية.

نظرًا إلى هذه المجموعة من الآيات، وغيرها من الآيات التي تُشجع الناس على كسب الرزق، بذل المسلمون قصارى جهدهم في الحصول على الرزق الحلال في مجالات الزراعة والتجارة وتربية الماشية والصناعة، ونحوها. وعلى مدى قرون متتالية، جلبت الثروات الوفيرة التي جمعت من جميع أنحاء الأراضي الإسلامية، من خلال العمليات التجارية والنشاطات الاقتصادية من الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال، الرخاء للبلاد الإسلامية.

كتب ألبرت حوراني أنه منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين، شكَّلت المباني العظيمة تجليًا خارجيًا وظاهرًا للعالم الإسلامي، بحيث كان أي مشاهد ومسافر يتردد من المحيط الهندي إلى البحر الأبيض المتوسط، يلحظ الانسجام والجمال الفني على امتداد البلاد الإسلامية. فالمساجد، والأسواق، والأحياء، والخانات، ومساكن الحجَّاج، والمسافرين، والمستشفيات، ومنازل الاستراحة المبنية على طول طرق القوافل، ومخازن المياه والقنوات، كلُّها نماذج تشهد على عظيم جهود المسلمين في إعمار الأرض وتحقيق الرفاه في أرجاء العالم الإسلامي³.

وقد احتلَّ تأكيد القرآن على إزالة الحرمان عن الفئات المستضعفة أهمية كبيرة

← (سورة الزخرف، الآيتان 13-14). ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ﴾ (سورة الحديد، الآية 26).

1- غلامرضا كلى زواره، نقش مسلمانان در شكوفایی اروپا، قم، صحيفه خرد، 1388 هـ ص 23.

2- سورة لقمان، الآية 20.

3- ألبرت حوراني، تاريخ مردمان عرب، ترجمه فريد جواهر كلام، تهران، امير كبير، 1387 هـ ج 2، ص 98-91.

في القضاء على الفجوات الطبقيّة؛ إذ تؤكد الآيات القرآنيّة على ضرورة القضاء على الفقر، والاهتمام بالضعفاء، وإلزام جميع المسلمين بذلك. وآية الإسلام في هذا المجال هي دفع الصدقات والخمس والزكاة، والإنفاق والجزية، ونحوها، ما يحفظ التوازن الاقتصاديّ والرّفاهيّة العامّة، ويمنع تراكم الأموال لدى طبقةٍ معيّنة من المجتمع. وقد سُيّدت الكثير من الأبنية الباقية منذ عصور مجد الحضارة الإسلاميّة وعظمتها بسبب سنّة «الوقف». ومن الأمثلة على ذلك: المساجد والمدارس والمكتبات والمستشفيات في مصر وسوريا في عهد نور الدين الزنكي والأيوبيّين¹.

2. عالميّة الدّين:

اتّخذت آيات القرآن دورًا مباشرًا في توسّع رقعة العالم الإسلاميّ. وقد شرّعت حاكميّة الدّين الإلهيّ في العالم بتصنيفه الهدف الأهمّ للمسلمين: ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾²، ومن خلال بيان: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾³ و﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾⁴، قدّم الدّين الأفضل والأكمل والقيّم، وصدر جواز غلبة الإسلام وهيمنته على الأديان كافّة. ولفت نظر المسلمين إلى تحرّكات ومؤامرات الأعداء الدّاخلين والخارجيين، وقدّم أيضًا الحلول في مواجهة ذلك. وتمثّلت بعض آيات هذه الحلول المطروحة في القرآن الكريم في الأمر بالهجرة والجهاد.

أ. الهجرة:

يقول الله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُون﴾⁵. لقد أمر القرآن المسلمين الذين يتعرّضون - بسبب خنق الحكام - للعسر والمشقة في تأديتهم لأعمالهم ومناسكهم الدّينيّة، بالهجرة إلى أراضٍ تتمتع بالأمن والأمان. كذلك كانت الأسفار العلميّة عبارة عن هجرة طلاب العلم إلى الأقطاب العلميّة في العالم الإسلاميّ، من أجل الاستفادة من محضر العلماء وأصحاب الفنون. تُعدّ

1- احمد شلبي، تاريخ آموزش در اسلام: از آغاز تا فروپاشی ایوبیان در مصر، ترجمه محمد حسين ساكت، تهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامي، 1381هـ، ص 102-105 و 151-166.

2- سورة البقرة، الآية 193. سورة الأنفال، الآية 39.

3- سورة آل عمران، الآية 19.

4- سورة التّوبة، الآية 33.

5- سورة العنكبوت، الآية 56.

دعوات القرآن للسّير في الأرض بهدف معرفة الله، وكشف الحقيقة، والتّفكير في عالم الوجود، والأطّلاع على الظواهر المتنوّعة، ومشاهدة آثار الماضيين، من جملة العوامل المحفّزة للمسلمين.

ب. الجهاد:

لقد حثّ القرآن الكريم المسلمين على الجهاد في سبيل الله وقتال أعداء الدّين، موضّحاً أنّ التّمهيد والاستعداد وامتلاك أسباب المواجهة والنّصر واجبٌ عليهم¹. والمبدأ الفعّال الذي ينبغي أن يؤخذ في الحُساب دائماً هو ضرورة الاستعداد القتاليّ الكافي ضدّ الأعداء، بحيث يثيرون الرّعب في قلوب الأعداء². وقد دفعت مثل هذه الآيات بالمسلمين ليصلوا الى مرتبةٍ من تعلّم الفنون القتاليّة والدّفاعيّة، بإعداد العديد والعتاد وتعزيز معنويّات المقاتلين، ما جعل جيوش الإسلام، لقرونٍ عديدة، من أقوى جيوش العالم، متربّعةً على عرش النّصر باعتقادها بالله الواحد وإيمانها به.

وفي هذا السّياق، يُشير جرجي زيدان إلى أنّ الإيمان بالقضاء والقدر الإلهيّ، المستمدّ من تعاليم القرآن الكريم، كان أحد العوامل المهمّة في تقدّم الإسلام وانتصار المجاهدين في ساحات القتال. ويوضح أنّ العرب كانوا يعتقدون أنّ الإنسان سيموت في وقتٍ محدّد، ولو كان نائماً على فراشه، وإذا لم يحن أجله، فسينجو ولو كان تحت السّيف والسّهم. وهذا الاعتقاد يجعلهم شجعاناً وثابتين في ساحة المعركة³. وهذه القضية تعكس جيّداً دور الفكر والثّقافة القرآنيّة في تقدّم المسلمين.

3. التطوّر العلمي:

يقول جورج سارتون في كتابه «مقدمة في تاريخ العلم»: كيف يمكننا الحصول على فهمٍ صحيحٍ حول علوم المسلمين إذا لم نفهم تمحورها حول القرآن؟⁴.

1- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنفال، الآية 60).

2- ناصر مكارم شيرازي، برگزيده تفسير نمونه، ص 160 و161.

3- جرجي زيدان، تاريخ تمدن اسلام، ترجمه ونگارش على جواهر كلام، تهران، امير كبير، 1393 هـ ص 26.

4- مهدي گلشنی، از علم سکولار تا علم دينی، تهران، پژوهشگاه علوم انسانی ومطالعات فرهنگي، 1394 هـ ج 6، ص 101.

لقد كانت آيات القرآن الكريم العامل الأكثر تأثيراً في النهوض العلمي للمسلمين، بحيث بذل كل عرق وقوم قصارى جهدهم من أجل خلق البيئة العلمية المناسبة، وتشيد هيكلاً للعلم الشامخ، وتكوين الحضارة والثقافة الإسلامية المتألقة؛ إذ من المستحيل بناء حضارة من دون علم. لقد قرّن القرآن الجهل بالعمى، وشبّهه بالظلمة البحتة¹، ممّا خلق التشجيع على تحصيل العلم، وبيان فضل العلماء²، وفضل العالم على الجاهل³، والتطرق إلى المواضيع العلمية المختلفة، رغبةً لدى المسلمين في جذب العلوم والفنون المختلفة حيثما وجدت، وجعلها متوافقة ومنسجمة مع الرؤية التوحيدية للإسلام.

وردت كلمة العلم ومشتقاتها حوالي ثمانمئة مرة⁴ في القرآن، وتحدثت آياته عن الظواهر الطبيعية، والحقائق العلمية، والكواكب، والرياح، والجغرافيا، وعلم الأحياء، والجيولوجيا، وعلم النبات، وعلم الحيوان، وعلم الطب والصحة والتغذية، وعلم النفس والتاريخ، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، ونحوها، ودعت الناس إلى التفكير والتأمل فيها.

يبين القرآن الكريم أن خلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار، والظواهر الفلكية وبعض استعمالاتها، كحساب الوقت والملاحة في البحر، هي آيات للعقلاء⁵. إن النظر في الآفاق والأنفس ودراستها يدفع إلى تحصيل العلم

1- ﴿ رَبَّنَا وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة، الآية 128).

2- ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقْتُمْ فَأِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة المجادلة، الآية 13).

3- ﴿ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الزمر، الآية 39).

4- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 469-481.

5- ومن هذه السور: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة البقرة، الآية 164). ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام، الآية 97). ﴿ أَلَمْ نَأْمُرْ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنَّا يُثْرَكُونَ ﴾ (سورة النحل، الآية 1). ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (سورة الأنبياء، الآية 33). ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (سورة الرحمن، الآية 5). ﴿ يَبْعَثُ الرَّجُلِينَ وَالنِّسَاءَ إِنْ أَسْتَضَعْتُمْ أَنْ تَتَفَدَّوْا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفِدُوا لَا

والمعرفة¹. ولا تُشكّل دراسة الطّبيعة هدفاً في حدّ ذاتها، بل الهدف من ذلك مشاهدة الآثار الإلهية في العالم، والاستخدام البناء للإمكانات الطّبيعية². وهكذا، أصبح تطوير العلم والنشاطات العلميّة تكليفاً إلهياً على الأشخاص ذوي النظرة الثّاقبة، والباحثين الذين يُفكّرون دائماً في حلّ تعقيدات خلق العالم وأغازه، واكتشاف أسرار الطّبيعة والكوّن، والكشف عن القضايا الأساسيّة للدين؛ مثل تحديد أوقات الصّلاة الخمسة، اتّجاه القبلة، ومعرفة تقويم الشّهر والسّنة. يُظهر تاريخ الألفيّة الأولى الهجرية والقرون الوسطى، أنّ المسلمين كانوا روّاد العلم في مختلف المجالات العلميّة في العالم لقرون عديدة، في ظلّ الحضارة الإسلاميّة. مع انتشار الإسلام، اختلط العرب بالأمم الأخرى، وتعرّفوا على طرق متعدّدة في التّكلم والتّفكير. ونظراً إلى هذه التّغييرات، بدأت حركة جدّية للغاية، ورضّ المسلمون الواعون صفوفهم، وبدأوا بتدوين علوم القرآن، وأوجدوا ضمانات عديدة لحفظ القرآن الكريم وحمايته من التّحريف. وكانت مقدّمات العلوم القرآنيّة لدى الصّحابة والمسلمين الأوائل في صدر الإسلام³. وتعدّ علوم القراءة، التّفسير، الكلام، الحديث، الرّجال، اللّغة، النّحو، الصّرف، التّاريخ، الألسنيّة، المعجميّة، والصّرف والنّحو، ولغة العرب من أجل شرح الكلمات النّادرة للقرآن، من أوائل العلوم الإسلاميّة التي أوجدت لأجل القرآن الكريم.

يذكر ابن خلدون في «المقدّمة»: «اعلم أنّ تعليم الوُلدان للقرآن شعائر من شعائر الدّين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، كما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث.

← تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنٍ ﴿ (سورة الرحمن، الآية 33). ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿ (سورة يس، الآيات 38-40). ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ ثَمَرٌ مَّرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿ (سورة النمل، الآية 88).

1- ﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَنْبَاءِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿ (سورة فصلت، الآية 53).

2- مهدي گلشنی، از علم سکولار تا علم دینی، تهران، ج 6، ص 71.

3- سيد محمد باقر حكيم، علوم قرآنی، ص 17.

وصار القرآن أصل التّعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعد من المَلَكات¹. منذ نهاية القرن الثّاني إلى القرن الرّابع الهجريّ، بدأت أعمال التّرجمة من اليونانيّة والسّريانيّة إلى العربيّة بشكلٍ جدّيّ². وشكّلت نهضة التّرجمة، وجذب النّخب من جميع أنحاء العالم، ونشر علوم «بيت الحكمة» والحضارة التي بنتها، ونقد النّصوص المترجمة وتصحيحها، وشعور العلماء المسلمين بعالميّة وطنهم، عوامل أدّت إلى نمو العلوم والفنون في العالم الإسلاميّ. كما أنّ رواج تكريم العلماء، وسيادة روح التّسامح وسعة الصّدر والاحترام والتّسامح مع آراء الآخرين، والمعاملة العادلة مع الفرق الأخرى، فتحت باب المناظرات الكلاميّة في دار الإسلام والتّعاون من أجل تقدّم العلوم والفنون³.

وبعد اطلاع المسلمين على العلوم اليونانيّة وتطابق القرآن مع العلوم التجريبيّة، وهو ما حدث بدءاً من القرن الرّابع الهجريّ (في كتابات ابن سينا)، ظهر نوعٌ جديدٌ من تفسير القرآن يُطلق عليه «التّفسير العلميّ»⁴.

وبالنّظر إلى النّظام الفلسفيّ للفلاسفة المسلمين الأوائل؛ مثل الفارابيّ وابن سينا، تتّضح نماذجٌ من تأثر نظامهم الفلسفيّ بالقرآن، وأهمّ هذه المبادئ مركزيّة علم الوجود التّوحيديّ والتّفسير الخاصّ لنظريّة المعرفة الوحيانيّة. فالفلسفة الإسلاميّة، رغم مصادرها غير الإسلاميّة، لم تكن إلّا في ضوء تعاليم القرآن العقلائيّة والفلسفيّة، ما جعلها تكتسب صفة «إسلاميّة»⁵.

4. تنمية الفنّ والإبداع:

الفنّ هو أحد المظاهر البارزة للحضارة، وقد ارتبطت حياة الإنسان دائماً بالفنّ. في الفكر الإسلاميّ، الله جميلٌ، والقرآن هو مظهرٌ جمال الله. ويُعدّ الجمال،

1- احمد شلبي، تاريخ آموزش در اسلام: از آغاز تا فروپاشی ایوبیان در مصر، ج 4، ص 57.

2- ألبرت حوراني، تاريخ مردمان عرب، ترجمه فريد جواهر كلام، تهران، امير كبير، 1387هـ ج 2، ص 119.

3- مهدي گلشنی، از علم سکولار تا علم دينی، ج 6، ص 111.

4- محمد علي رضایی اصفهانی، پژوهشي در اعجاز علمي قرآن، رشت، كتاب مبین، 1381هـ ج 2، ص 15.

5- قدرت الله قربانی، «نقش قرآن در شکوفایی حیات عقلائی و فلسفی تمدن اسلامی»، پژوهشنامه معارف قرآنی، شماره 18، 1393هـ ص 35-62.

وممارسة الفن، وعلم الجمال من القدرات الفطرية التي منحها الله للإنسان. وقد أبدع الفنانون المسلمون، متأثرين بالدين وتعاليم القرآن، أعمالاً فنية بديعة وخالدة في مختلف المجالات. وما المساجد إلا أحد المباني والآثار الأكثر خلوصاً وقداً في الحضارة الإسلامية. كما أن للدور المركزي لتلاوة القرآن وتخطيطه حضوراً حياً فعلاً في كل أرجاء الحضارة الإسلامية. فعمارة بلاد المسلمين تتميز بأجواء ومساحات تضحج بكلام الوحي، وهي مرتبطة في شكلها وأدائها الأساسي بالقضايا العقائدية¹. كما تبغى الإشارة إلى الخط الحسن والتخطيط، كتسلسل لفن كتابة القرآن في صدر الإسلام².

يرى «هنري لوكاس» (Henry Lucas)، في كتابه «تاريخ الحضارة»، أن الفن الإسلامي متأثر بالأفكار الإسلامية المأخوذة من تعاليم الوحي في القرآن الكريم. ويؤكد لوكاس أن تجلي الآيات القرآنية في الفن أمرٌ مشهود، فيقول: «دخلت العناصر السوروية والبيزنطية والإيرانية والمصرية والرومانية إلى الفن الإسلامي، ولكن الأفكار الإسلامية هي التي حددت طريقة استخدام هذه الفنون. فقد نهى القرآن عن رسم صور الكائنات الحية، سواء كانت إنساناً أو حيواناً. وقد أبدع أساتذة الفن الإسلامي تصاميم الزخرفة الهندسية التي لم تحرم دينياً؛ إذ استخدموا تصميمات معقدة ومتشابكة للغاية، رُسمت على الأقواس والأبواب وجدران الغرف. واستُخدمت الورود والنباتات الطبيعية والصورية، وكذلك الآيات القرآنية في التصميم. لقد كان التأثير الزخرفي لهذا العمل عظيمًا جدًا، وقد نجح الحرفيون المسلمون في استخدام مثل هذه التصميمات في نحت الخشب والحجر والعاج»³.

الخاتمة

في الختام، يمكن الإشارة إلى أهم نتائج هذه المقالة وفق الموضوعات الآتية:

1. تقوم الحضارة على الثقافة، والتي تقوم بدورها على التفكير. ومن عناصر الحضارة: التمدن والتقدم والتنمية والنمو والإبداع والمأسسة. وكل هذه

1- غلامرضا كلى زواره، نقش مسلمانان در شكوفايي اروبا، ص 23.

2- على اكبر ولايتي، فرهنگ وتمدن اسلامي، قم، نشر معارف، 1384هـ ص 106.

3- هنري لوكاس، تاريخ تمدن، ترجمه عبد الحسين آذرنگ، تهران، سخن، 1382هـ ج 8، ص 439.

الأمر لا يمكن تصوّرها من دون الثقافة، واستناد هذه الأخيرة على أسسٍ فكريةٍ قويّةٍ ومنتية.

2. قبل ظهور الإسلام، كان العرب يعيشون في مكة والحجاز، ولم يكونوا يتمتّعون بأيّ من مقتضيات الحضارة. لقد كانت شبه الجزيرة العربيّة مجتمعاً راكداً وجامداً وبعيداً عن أيّ نوعٍ من التّكامل الفكريّ والتّقدّم البشريّ.

3. تتوافق تعاليم القرآن مع العنصرين الدّائيتين في الإنسان: «العقل» و«الفطرة». وقد أسهم كلام الوحي في تغيير المنظومة الفكرية وإصلاحها عند العرب الجاهليين، عبر التّأكيد على ضرورة التّعقل والتّدبّر والتّفكير وإيقاظ الفطرة. كذلك، حدّر أتباعه من الجمود الفكريّ وعدم الأطلاع، وحثّهم على البحث والدّراسة الواعية والشّخصية في تقبّل الأسس الاعتقاديّة وتبنيها.

4. إنّ النزعة نحو الهداية وبناء الثقافة من مؤسّرات البناء الحضاريّ للقرآن.

5. لقد صُمّمت آية القرآن، في فاعليته وتأثيره على الأسس الفكرية للنّاس، على النّحو التّالي:

أ. إصلاح الأسس الفكرية والعقائدية للنّاس من خلال: نموّ العقلانيّة، وتعزيز الإيمان بالمبدأ والمعاد، والتّحلّي بفلسفة للحياة وفهم راسخ وصحيح لحقائق الوجود.

ب. البيان التّفصيلي لأحكام الشّريعة في ما يتعلّق بحقوق الإنسان وواجباته؛ إذ لا يوجد أدبٌ خارجٌ عن أشكال الأحكام الخمسة: الحرام، الواجب، المستحبّ، المكروه، والمباح. وبهذه الطريقة، بدأ في إصلاح بنيّة العادات والتّقاليد الحاكمة على المجتمع.

ج. كلام الله هو المرشد والدّليل على الطّريق، ومُبين للأحكام الأخلاقيّة التي توصل من يتخلّق بها إلى الكمال والسّعادة الحقيقيّة. وأخيراً، في المجتمع القرآنيّ، احتلّت الأخلاق مكانةً رفيعة، ويسعى النّاس إلى اكتساب الفضائل الأخلاقيّة والوصول إلى مرتبة التّقوى.

د. إنّ نظرة الإسلام الخاصّة إلى الدّنيا والآخرة، وتشجيعه على العمل والسّعي، وجّها النّاس نحو نمط حياةٍ دينيّةٍ يقوم على عبادة الله الواحد الأحد.

هـ. أبرزت الآيات القرآنيّة على أنّ الأخوة والمحبة، والقضاء على أيّ تمييز واختلاف طبقيّ، من خصائص المجتمع الإسلاميّ المتحضّر، وعدت إقامة العدل، وخصوصاً العدالة الاجتماعيّة والأمن المستقرّ، من متطلّبات التّحضّر والعقيدة الموحّدة.

6. لقد رسم كلام الوحيّ أسس حضارة عالميّة ذات نموّ وتقدّم في الأبعاد التّالية:

- أ. التّمنية الاقتصاديّة؛ أوجدت الآيات القرآنيّة، من خلال بيان دور الإنسان في الطّبيعة وضرورة بذل الجهود لكسب لقمة العيش ونظام ماليّ فريد، الأرضيّة للأنشطة الاقتصاديّة ورفع الفقر.
- ب. الانتشار الدّينيّ؛ حثّ القرآن على ضرورة نشر دين الإسلام والدّعوة إليه عاملاً؛ لتّساع الحدود الجغرافيّة ورقعة حكم الإسلام السّياسيّ في أجزاء واسعة من العالم.
- ج. التّطوّر العلميّ؛ أدّى تشجيع القرآن على النّموّ العلميّ إلى توفير أسباب تحصيل المعرفة، ونهضة التّرجمة، وتصحيح العلوم السّابقة وتعديلها وإصلاحها، وتراكم المعرفة، والابتكار، والاختراع في مختلف المجالات العلميّة والصّناعيّة والتّقنيّة والفنيّة، ومواجهة الفقر الثّقافيّ والعلميّ.
- د. توسّع الفنّ؛ استطاعت آيات الوحيّ الهاديّة والمرشدة أن تُوجد أمة واحدة - بغضّ النّظر عن العرق والجنسيّة واللّهجة والمناطق الجغرافيّة - عازمةً على الابتكار والإبداع في مجال الفنّ والصّناعة. وقد أقدم الفنّانون المسلمون، تحت تأثير الدين وتعاليم القرآن، على إبداع آثارٍ بدیعة وخالدة في مختلف المجالات. وهكذا، نشأت هذه الحضارة الأصيلة والقيّمة.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

قائمة المصادر والمراجع باللّغة العربيّة

- ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، 1378هـ.
- طباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، قم، جامعة مدرسين، لا ت.
- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألّفاظ القرآن الكريم، تهران، اسماعيليان، 1364هـ.

قائمة المصادر والمراجع باللّغة الفارسيّة

- نهج البلاغه، ترجمه محمد دشتي، اصفهان، فرهنگ مردم، 1380هـ.
- إبراهيم حسن، حسن، تاريخ سياسي اسلام، ترجمه ابوالقاسم پاينده، تهران، بدرقه جاويدان، 1392هـ.
- بي آراز شيرازي، عبد الكريم ومحمد باقر حجتى، ميثاق در قرآن، تهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامي، 1386هـ.
- جعفریان، رسول، تاريخ سياسي اسلام تا سال چهلم هجري، قم، مؤسسه در راه حق، 1366هـ.
- جوادى آملی، عبد الله، مبادئ اخلاق در قرآن، قم، اسراء، 1377هـ.
- —، منزلت عقل در هنسه معرفت دينی، تحقيق وتنظيم احمد واعظی، قم، اسراء، 1386هـ.
- حکيم، محمد باقر، علوم قرآنی، ترجمه محمد علی لسانی فشارکی، تهران، مؤسسه فرهنگي انتشاراتي تبيان، 1378هـ.
- حوراني، ألبرت، تاريخ مردمان عرب، ترجمه فريد جواهر كلام، تهران، امير كبير، 1387هـ.
- خوري حتّي، فيليپ، تاريخ عرب، ترجمه ابوالقاسم پاينده، تهران، علمي وفرهنگي، 1380هـ.

- داوری ارکانی، رضا، وضع کنونی تفکر در ایران، تهران، سروش، 1391 هـ.
- دهخدا، علی اکبر، لغت نامه دهخدا، تهران، دانشگاه تهران، 1373 هـ.
- رضایی اصفهانی، محمد علی، پژوهشی در اعجاز علمی قرآن، رشت، کتاب مبین، 1381 هـ.
- زرین کوب، غلامحسین، کارنامه اسلام، تهران، امیر کبیر، 1379 هـ.ش.
- زکریایی، محمدعلی، فرهنگ مطهر، مفاهیم، اصطلاحات و تعابیر علوم انسانی-دینی از دیدگاه استاد شهید مرتضی مطهری، تهران، جامعه و فرهنگ، 1389 هـ.
- زیدان، جرجی، تاریخ تمدن اسلام، ترجمه و نگارش علی جواهر کلام، تهران، امیر کبیر، 1393 هـ.
- سبحانی، جعفر، فروغ ابدیت، قم، دفتر تبلیغات اسلامی، لا ت.
- شرتونی، سعید، اقرب الموارد في فصح العربيه والشوارد، قم، کتابخانه آیت الله مرعشی نجفی، 1403 هـ.
- شلبی، احمد، تاریخ آموزش در اسلام: از آغاز تا فروپاشی ایوبیان در مصر، ترجمه محمد حسین ساکت، تهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامی، 1381 هـ.
- صرامی، سیف الله، جایگاه قرآن در استنباط احکام، قم، دفتر تبلیغات اسلامی، 1378 هـ.
- غنیمه، عبد الرحیم، تاریخ دانشگاههای بزرگ اسلامی، ترجمه نور الله کسایی، تهران، دانشگاه تهران، 1388 هـ.
- قربانی، قدرت الله، «نقش قرآن در شکوفایی حیات عقلانی و فلسفی تمدن اسلامی»، پژوهشنامه معارف قرآنی، شماره 18، 1393 هـ.
- قرشی، علی اکبر، قاموس قرآن، تهران، دار الکتب الاسلامیه، لا ت.
- گلشنی، مهدی، از علم سکولار تا علم دینی، تهران، پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی، 1394 هـ.
- گلی زواره، غلامرضا، نقش مسلمانان در شکوفایی اروپا، قم، صحیفه خرد، 1388 هـ.
- لوبون، گوستاو، تمدن اسلام عرب، ترجمه محمدتقی فخرداعی گیلانی، تهران، علی اکبر علمی، 1363 هـ.

- لوکاس، هنری، تاریخ تمدن، ترجمه عبد الحسین آذرنگ، تهران، سخن، 1382 هـ.
- مطهری، مرتضی، فطرت، تهران، انجمن اسلامی دانشجویان مدرسه عالی، 1361 هـ.
- —، خدماں مقابل اسلام و ایران، تهران، صدرا، 1374 هـ.
- معین، محمد، فرهنگ فارسی، تهران، امیر کبیر، 1388 هـ.
- مفتاح، محمد، آیات اصول اعتقادی قرآن، تهران، نور، 1360 هـ.
- مکارم شیرازی، ناصر، برگزیده تفسیر نمونه، تهران، دار الکتب الاسلامیه، 1386 هـ.
- نصیری، علی، راز جاودانگی قرآن، قم، اسراء، 1390 هـ.
- ولایتی، علی اکبر، فرهنگ و تمدن اسلامی، قم، نشر معارف، 1384 هـ.